رسالة إلى العَملات والعُمّال الإجتماعييّن
في لبنان

بيروت في 1988/5/6

أيُها العاملات والعُمّال الإجتماعيّون في لبنان،

من أعماق الكارثة التي نعيش فيها، بل نموت كل يوم بسببها، شعرت أن من واجبي، وأنا مَعكم مُنذ ثلاثين سنة ونيف، التوجّه إليكم برسالة تتضمن الأخطار التي تُهدد مَصير عَملنا الإجتماعي أو صحتّه، لكيّ نتكاتف أكثر فأكثر وفوراً هذه الأخطار في سبيل الذين تَعمل لأجلهم.

الأخطار على العَمل الإجتماعي

- أول خطر على العَمل الإجتماعي يُمكن أن يَصدر عنّا، نحن العُمال والعَملات في هذا الحقل. لقد تعلمنا، من الكُتب أو المُمارسة أو التباحُث، أن العَمل الإجتماعي متنوّع:
منه ما يُحاول خدمة الفرد أو الجَماعة الصغيرة أو المُجتمع بأسره. منه ما يُكيف الأفراد والجماعات على المُجتمع لئلا يَبقوا هامشيين، ومنه ما يَسعى لتغيير المُجتمع ليَخدُم الأفراد والجَماعات الخدمة الفُضلى – ومِنه ما يتوخى تطوير المُجتمع وتنميته.
وتعلمنا أنه، مهما تنوعّت أشكال العَمل الإجتماعي، يَبقى هدفه الأخير واحداً، هو خدمة كل إنسان وكل ما في الإنسان ليُصبح أكثر وأفضل إنسانية.
فالخَطر الأول، في أيام السلم وأيام الحَرب، هو أن تَنسى، نحنُ العُمّال وآلعملات، هَدف العَمل الإجتماعي، وأن نستبدله، من حيث ندري أو لا ندري، بأهداف أخرى:
    - باللذة الشخصية في خدمة الأخرين،
    - بالشعور الذاتي أننا نافعون في المُجتمع،
    - بملء الفراغ في الوقت أو في الشخصية،
    - بمُمارسة السلطة على المُحتاجين إلى مُساعدتنا،
    - بل حتى بالقيام بواجباتنا الإنسانية أو الوطنية أو الدينية،...
فنُصبح نحن الهَدف، ويُصبح المُحتاجون وخدمتهم الوسيلة لتحقيق ذاتنا إنسانياً أو وطنياً أو دينياً، بَينما يجب أن يَبقى الإنسان المُحتاج هو الهَدف، والأكثر حاجة هو صاحب الأولوية.

- الخَطر الثاني الذي قد يَصدُر عنّا، نحن أيضاً، هو أن تَنسى المَنهجية السليمَة للعَمل الإجتمّاعي، التي تقتضي مِنّا:
    - أن نقدم الأهم على المُهمّ والمُهمّ على الفاضِل، ونمتنع عَن المُضر بصاحب الحاجة،
    - أن نقدم الملحّ في الأهمّ والمُهمّ، على المُمكن أن يحتمِل الإنتظار،

- أن لا نجري أي تمييز بين من نخدمهم بسبب دينهم أو مَذهبهم أو حِزبهم أو مَنطقة سَكنهم،
- أن نقدم العَمل الوقائي على العِلاجي، حتى عِند وقوع كارثة وتنظيم الإغاثة الطارئة،
- أن نسعى ليصب كل عمل، حتى الإغاثة والوقايَة والعِلاج، في هدف التنميّة، التي توصل الإنسان إلى الإستقلالية الحقيقيّة،
- أن نحترم في كل ذلك الإنسان المُحتاج إلى الإحترام الكامِل، فلا يَشعُر بأي جميل أو مُنّة أو إحسان من قِبلنا، كأنّه مُدين تجاهُنا، بل بالعَكس أن نعتذِر كَوننا في مَوقعِنا وهو في مَوقعه.

- <u>والخَطر الثالث يأتي من المُتطفلين على العَمل الإجتما عي</u>، يَعتبرونه:
  - تغذيّة لحاجة في النَفس أو تعطف، وتشفق وتحنّن على الضعفاء، والفقراء،
  - تسلية إيجابية، بدلاً من التسليات الفارغَة،
  - تقدماً شخصياً في نظر المُجتمع،
  - مَوقعاً في إطار جمعية أو مؤسسة، لإقامة زعامة على أعضائها وعلى المُستفيدين مِنها.

- <u>والخَطر الرابع تَنبع من تكوين البلاد الطائفي المَذهبي</u>، فكل مَذهب كان، منذ القرن التاسع عشر، له جمعياته ومؤسساته "الخيريّة"، التي حوّلت في السنين الأخيرة بعض أموالها إلى تغطية نشاطات "إجتماعيّة"، سمتها كذلك تمشياً مع التطوّر في العالم وفي لبنان:
  - أعضاؤها هم وجهاء المَذهب،
  - أموالها هي من أبناء المَذهب المَيسورين، وهيآت أجنبية أو عربية تدعمُها،
  - والمُستفيدون منها هم أبناء المَذهب المُحتاجون.

وهكذا ينقسم المُجتمع على صعيد العَمل الخيري أو "الإجتماعيّ"، كما هو مُنقسم على الصعيد الديني أو السياسي.

وفي أغلبية الأحيان تصبح الجمعيّة أو المُؤسسة أهم من عَملها، تصبح هي وتطورّها وبروزها من خِلال وسائل الإعلام الهَدف، ويُصبح المُحتاجون ومُساعدتهم وسيلة لذلك.

- <u>الخطر الخامس</u>، الذي إنتشر خلال سنين الحرب، <u>جاء من إهتمام الأحزاب بالعَمل الإجتماعيّ</u>.

فبعد أن كانت الأحزاب تحتقر الأعمال والخدمات الإجتماعيّة، "لأن السياسة هي الأهم، إذ هي التي تفرز النظم الإقتصادية والإجتماعيّة. فالوصول إلى السُلطة هو الطريق الأقصر والأنجح لتغيير هذه النظم، ولإقامة العَدالة الإجتماعيّة". ولكن، بعد أن تدهورت الأوضاع الإقتصادية والإجتماعيّة بسبب التسابُق إلى السلطة والقاتل في سبيلها، أصبح ضغط

الناس: الساكنين في كل منطقة نفوذ حزبي، كبيراً جداً، وحاجاتهم مُلحّة أكثر. فإضطر المَسؤولون الحزبيون إلى إعادة النظر بموقفهم من العَمل الإجتماعيّ. فأخذوا يُشكلون المَجالس المَركزيّة واللجان المَحليّة، "الأهليّة"، أو "الشعبيّة"، ويُنظمون الخَدمات الإقتصادية والإجتماعيّة للمنتمين ى أحزابهم وعائلاتهم وأنصارهم أولاً، ثم لباقي المَساكن في منطقة نفوذهم، "إذا بقيّ حجارة".

وهنا أيضاً، بل أكثر من أي إطار آخر، نتج خطر إستغلال "العَمل الإجتماعيّ"، الذي يقتصر في أغلب الأحيان على المُساعدات الغذائية أو النقديّة أو الإستشفائيّة. فقد أصبح هذا العَمل وسيلة:

- لإزالة نقمة الناس ضد الحزب الذي لم يهتم بأمورهم الحياتيّة، من قبل،
- لإبقاء المُحازبين والأنصار في تبعيّة الحزب،
- لإجتذاب أنصار جُدد،
- لإظهار الحزب بوجه إنسانيّ،
- للإفتخار على باقي الأحزاب بكميّة المُساعدات ونوعيتها،
- لتقديم الحزب كبديل للدولة في إدارة مَدينة، أو هيئة شعبية أو مَجلس إنماء،...
- لإستدراء الأموال من الهيئات العَربية والأجنبية، ... التي لا تصرَف دائماً أو كلها في سبيل المُحتاجين!

وهُنا أيضاً يُصبح الحِزب الهَدف والناس المُستفيدون من خَدماته الوسيلة لتحقيق نموّ الحزب وبروز زعمائه.

- والخطر السادس، المُرافق للخامس، جاء من الدول الأجنبيّة والعربيّة. فقد طالما سكتت على مأساة لبنان ومُسببيها، بل طالما كانت بعض أسبابها. فعند كل "جَولة" عنف جديدة، كانت تخرُج عن صمتها "لتشجب العنف" بكلمات عامة، ولتعرض "جولة" مُساعدات جديدة لضحايا العُنف. وكأن تلك الدول ضالعة بالمُؤامرة على لبنان، ولها دور تضميد الجِراح وإسكان النقمة، لتظل الحرب قائمة في حدود مُحتمل، وليظل لبنان في طور النزاع، بدون أن يَصل إلى المَوت النهائي.

وهذه المُساعدات، في أكثر الأحيان تأتي "برامج إنمائية طارئة":

- فتصل المَواد الغذائيّة الفائضة عن البُلدان الواهبة،
- ويَصل منها ما هو نافع، وما هو نافل، وما هو مُضر،
- وتعطى المُساعدات في إطار الإنتسابات الحِزبية، داعمة لها ولهيمنتها في منطقتها،
- بل تحدث مُنافسة بين الجهّات الواهِبة، كل جهة راغبة في أن تظهر المُنعمة الكبرى على لبنان،
- وتحدث الإزدواجية في المُساعدات، لاسيما المَواد الغذائية، فتُباع في الأسواق...

وفي كل ذلك ينسى الإنسان المُحتاج والمُتألم، ويُصبح الهَدف إنتصار الجهّات الواهبة، وإتخاذ مَواقع ومَكاسب سياسيّة.

- الخطر السابع ينتج من فوضى المُساعدات الواردة من جميع الجهّات اللبنانيّة والعَربيّة والأجنبيّة، الحُكوميّة وغير الحُكوميّة، ومن عدم التنسيق بينها، ومن عدم دراسة الحَاجات الفِعليّة لدى الأفراد والعَائلات والجَماعات والمَناطق.

وعندما تحدث مُحاولة تنسيق، مَثلاً بين الهيئآت غير الحُكومية في لبنان، وبينها وبين الأجهزة الحُكومية القائمة، ومُنظمات الأمم المُتحدّة في لبنان، ضُمن مُخطط يعطي كل "فريق" حقوقه ومَسؤولياته، لأجل التعاون والتفاعُل والتكامُل والتخطيط في حقول العَمل الإجتماعيّ المُختلفة، التكييفيّة والتغييريّة والإنمائيّة، تنشأ شتى الصُعوبات والمُضايقات لعرقلة هذا التنسيق:

  - فتحاول كل جمعيّة أو مُؤسسة أن تستفيد من التنسيق، بدون أن تسهُم في تأسيسه ودعمّه،
  - ويُتهمّ التنسيق بأنه مُحاولة هيمنة على العَمل الإجتماعيّ،
  - وتنشأ مُحاولات تنسيق أخرى، كأنها حركات تصحيحيّة، فتُصبح حركات إنفصالية، ومِن ثم تقسيمية، فينتفي التنسيق وأهدافه.

- الخطر الثامن الذي ينتج من الأخطار السابقة ويُهدد اللبنانيين ولبنان، وهو:
  - أن يُصبح لبنان بلد الإستعطاء المُعمّم والمُنظّم، حُكومياً ولا حُكومياً، لإستقدام الأموال من الخارج،
  - أن يُصبح اللبنانيون مُحترفين في الإستعطاء من الهيئآت الدُولية والحُكومية وغير الحُكومية، الحِزبية والطائفية واللاحزبية واللاطائفية،
  - أن يُصبحوا إتكاليين، يَعرفون من أين تؤكل الكتف، وغير الكتف، فيكتفون بالإستعطاء بَدلاً من السَعي للعَمل، والعَمل المُنتج، وللإستقلالية الذاتية،
  - وأن يُرافق كل ذلك الكذب و"الزعبرة" على مَصادر الأموال، مع تدهور الأخلاق على جميع الأصعدة، من الحَسد إلى الإنتقاد إلى النميمة إلى التباغض. ومن السرقة إلى إتهام الغير بالسرقة،...

المَطلوب منّا

أيُها العَملات والعُمّال الإجتماعيين،

بلادُنا مُقسمة إلى دويلات "الأمر الواقع". وفي كل سنة تزداد إنقساماتها عدداً وعُمقاً. وإذا لم يتمكن المُتآمرون الغرباء والدُخلاء والمُواطنون من الوصول إلى التقسيم الرسمي المُعترف به دولياً، وقد لا يصلون، فإنهم توصلوا إلى تفكيك البلاد وتفتيتها. والشعب كله يُعاني من التفكيك والتفتيت.

فإذا كنّا عامِلات وعُمالاً إجتماعيين مُدركين حقاً أن هَدف عَملنا هو الإنسان "المُحتاج إلى مُساندة المُجتمع ليَعيش ويَنمو"، فلا بُدّ من أن يكون هدفُنا الشامِل كل إنسان في كل لبنان.
فإن أرغمونا على العَمل ضمن دويلة مُنفصلة عن باقي الدويلات، تحجم هدفنا وتشوّه. وزال مُبرر حياتنا ورسالتنا. فإذا أردنا المُحافظة على كياننا ورسالتنا وهدفنا الكبير، فالمَطلوب منّا الكثير:

- مطلوب منّا أولاً أن نعي الأخطار التي تُهدد العَمل الإجتماعيّ في لبنان، التي ذكرت بإختصار في القسم الأول من هذا المَقال، والتي لم تذكر، ويتألم منها كل في مُحيطه.

- مطلوب منّا أن لا ننسى هدفنا الشامل، وأن لا يُصبح أبداً الإنسان المُحتاج وسيلة لهدف آخر، مهما بدا هذا الهدف كبيراً وسامياً.

- مطلوب منّا ، ولا شك، أن نخدُم الذين نحن في علاقة جغرافية معهم. ولكن مَطلوب، بالوقت ذاته، أن نظل عقلنا وقلبُنا منفتحاً على الأفق اللبناني الكامِل.

- مطلوب، إذاً، أن نتلاقى مَعاً، من وقت إلى آخر، بالرُغم من الإنقسامات والحدود الداخلية وصعوبات المَعابر الإصطناعية وإرادة الهَيمنة الحِزبيّة أو الطائفيّة على العَمل الإجتماعيّ.

- مطلوب من أن نبقى حاملين القيّم الإنسانيّة التي يتضمنها العَمل الإجتماعيّ: قيّم العَدالة والمُساواة والحريّة والتضامُن والتكامُل، لأجل كل الشعب في لبنان.

- مطلوب منّا أن نؤسس عملنا على المَعرفة العِلميّة للمُشكلات الفرديّة والجماعيّة، وعلى مَعرفة جذورها وأسبابها، وكيفية تلبية الطارئ المُلحّ، بدون الوقوع في أخطاء العَمل الخيري الذي يَفرز مُستعطين مُحترفين إتكاليين.

- مطلوب منّا، أن نعيّ، إذا كانت تلك منطلقاتنا ومُمارساتنا، بالرغم من جميع الصعوبات، إننا نتخطى العَمل الإجتماعيّ إلى العَمل الوطني مع أبعاده الكُبرى وتأثيره على مَصير البلاد.
  إننا نؤكد نظرياً وعملياً على تجاوز الحُدود الإصطناعية والداخليّة، وعلى وحدة لبنان الإنسان، أو وحدة الشعب اللبناني، لا كشعار، بل كحقيقة وواقع.

- بل نؤكد حتى لو نجحت المؤامرة في أي مشروع تقسيمي للبنان، تبقى العُمّال والعَاملات الإجتماعيّون، في قطاعهم الجُغرافي، الخميرة التي تجعل من الشعب المطحون بمَطاحن الحَرب والمَصالح الشخصية والفئوية، العجين الواحد الخبز الواحد، لتغذية الأجيال الجديدة بالغذاء التربوي الواحد، لإنشاء مُجتمع جديد، يكون فيه الإنسان الهَدف حقاً، وكل ما سواه، المؤسسات والقوانين والأموال، وسائل لنموّه وإكتماله.

- مطلوب منّا أن نعي أنه، بالنسبة إلى الإنسان، حدود جميع الأوطان إصطناعية. لها تبريرها ما دامت "وظيفة"، أي ما دامت لها وظيفة بجعل المُجتمعات على مُستوى الإمكانات البشريّة في وقت من التاريخ، ومُستوى تأدية الخَدمات اللازمة لكل إنسان وإلاّ أصبحت مُضرة وأن نعي المَد والجزر والصراع الجديّ الدائم في البلد الواحد بين الإدارة المَركزية واللامركزيّة، حتى في الدول الإتحادية الفدرالية. وأن لبنان سيظل مدة طويلة في دوامة التجاذب الجدلي هذا، بين مشروع الدويلات الطائفية، المُستقلة أو المُتحدة فدرالياً، ومشروع "الأقطار – الدول" الحالية، ومَشروع الهلال الخصيب، ومشروع الوطن العربي الكبير... مَطلوب منّا أن لا نضيع في هذا المدّ والجزر، وأن نبقى على إقتناعاتنا العميقة.

- مطلوب منّا، في غمرة الصراعات الإيديولوجيّة أو الدمويّة، التي تستنزف لا دم المُستضعف فقط، بل أعصابهم، وعقلهم، وإرادتهم، وإيمانهم، ورجائهم في أي مُستقل كان. مَطلوب منّا، في غمرة هذه الصراعات، حيث السياسيون والحِزبيون والعَسكريون يَهتمون "بالأهم"، أي بالسلطة والمال، وينظرون إلى الأمور من فوق، ومن ثم إلى الناس من فوق، ومن بعيد، وقد يَرون أولاً يرون ضحايا نظرتهم الفوقيّة والبعيدة، أن نعيش نحن مع المُستضعفين، ونعرف حاجاتهم الحقيقية، ونتعاون مَعهم كي لا يفقدوا نهائياً دمهم وأعصابهم وإرادتهم وإيمانهم ورجاء مُستقبلهم ومُستقبل أولادهم.

- مطلوب منّا، نحن العُمّال والعاملات الإجتماعييّن، أن نكون جزءاً من الجَماعة الواعية المُؤمنة المُلتزمة، المهيأة بسبب رسالتها وتدربها عليها أكثر من غيرها لهذا العَمل "الإنساني" بمعناه العميق: أي الذي تَعتبر الإنسان القيمة السامية والهدف الأخير، الذي لا يجوز أن ننسى بسبب ما يظنونه "الأهم" ولا يجوز أن يقزموه لأنهم ينظرون إليه من فوق أو من بعيد، أو من خلال الأدمغة الإكترونية.

- أجل، مطلوب منّا، في غمرة هذه الصراعات، أن نقوم بدورنا الأساسي والخطير. فالصراعات السياسية في أيام السلم لا تدوم طويلاً، وزعماؤها يزولون بسرعة، الواحد بعد الآخر. أمّا في أيام الحرب فيزولون ويتبدلون بسرعة أكبر، فكأنهم فقاقيع ماء على سطح البحر. والزعماء المُعتبرون "فوق" هم مع صراعاتهم بين "فوقية" سريعة الزوال. وأهميتهم "سطحيّة". بينما البنى الحقيقية في المُجتمع هي الجَماعات البشريّة وهي صاحبة الأهميّة الباقية الأساسية. والذين هم بخدمتها، أي العُمّال والعَملات الإجتماعيّون، تستمرون، من بناها، الإستمرارية والدموية، بل ضرورة الوجود.

- مطلوب منّا أن نعي أهمية خدمتنا، مع كل التواضع الذي تُرافق "الخدمة"، فلا تصبح الخدمة مُناسبة للتعالي والتسلط، وأن نضطلع بمسؤوليتنا الجَماعية، لاسيما في أيام التفكك والتفتت هذه ، فلا نكتفي كل منّا بمسؤولية الفردية أو المؤسسيّة. فالبلاد بحاجة إلى هذا الوعي الجماعي والمسؤولية الجماعية، لكي تتنظم من جديد على أسس جديدة، تكون حقاً لنموّ كل إنسان في لبنان.

غريغوار حداد